الاسم و اللقب : **طارق بن زاوي** . الرتبة العلمية : أستاذ محاضر أ .
الجامعة : محمد بوضياف المسيلة .
البريد الإلكتروني المهني : **tarek.benzaoui@univ-msila.dz** التخصص : التاريخ الوسيط .

عنوان الملتقى: **المنشآت العلمية في حواضر المغرب الأوسط (خلال القرنين 03-11هـ/09-17م)**.
تنظيم:**جامعة زيان عاشور (01 و02 مارس 2023م)**.
محور المداخلة : **المساجد و الجوامع في حواضر المغرب الأوسط** .

عنوان المداخلة :

الجوامع و المساجد في تلمسان خلال عهد أبي الحسن المريني من خلال كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق (731-752 هـ/ 1331-1351م) .

الجوامع و المساجد في تلمسان خلال عهد أبي الحسن المريني من خلال كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق (731-752 هـ/ 1331-1351م

من المنشآت العمرانية التي اهتم بها المسلمون كثيرا منذ صدر دولتهم في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم الجوامع و المساجد ، فإضافة إلى دورها التعبدي فقد كانت منارات لنشر العلم و المعرفة في مختلف العلوم و الفنون ، فلا تكاد تخلو قرية أو مدينة منها في كل أنحاء العالم الإسلامي ، و لم تشذ بلاد المغرب الإسلامي عن هذه القاعدة فقد بنيت فيها الجوامع في كل زاوية من زواياها ، و هي دليل على رسوخ وتجذر الدين الإسلامي الحنيف و انتشاره فيها .

و مدينة تلمسان حاضرة المغرب الأوسط التاريخية و التي كانت محل صراع كبير بين مختلف الدول المتعاقبة التي عرفتها المنطقة عُرفت بمعالمها الحضارية المختلفة و من أهمها الجوامع ، و بعد سقوط و انهيار دولة الموحدين و ظهور كيانات سياسية جديدة على أنقاضها ، تنافس بنو زيان و بنو مرين على السيطرة عليها ، و إن كان الظفر غالبا لبني زيان فإنّ بني مرين في أيام أقوى سلاطينهم أبو الحسن قد تمكنوا من السيطرة على تلمسان و إخضاعها لحكمهم ، و اعتبرها السلطان أبو الحسن إحدى حواضر ملكه فنالت حظها من المعالم التي شيّدها هذا السلطان في بلاد المغرب الإسلامي كلها ، و من هذه المعالم الجوامع التي حضيت باهتمام السلطان و أمر ببناء كثير منها في مدن المغرب الأوسط ، و ممّن دوّن حوادث هذه المرحلة التاريخية المهمة المؤرخ الخطيب بن مرزوق و الذي كان شاهدا و معاصرا لما كتب ، فجاء كتابه المسند الصحيح الحسن في محاسن و مآثر مولانا أبي الحسن وثيقة تاريخية مهمة جدا في التأريخ لهذا الحقبة التاريخية ، و محاولة منا لمعرفة أهم الجوامع التي بُنيت خلال العهد المريني في المغرب الأوسط لا بأس أن نطرح بعض الأسئلة البسيطة في هذا الإطار و هي كالآتي : من هو الخطيب ابن مرزوق و ما جاء في كتابه و فيم تكمن أهميته ؟ و من هو السلطان أبو الحسن المريني؟ و ما هي أهم الجوامع و المساجد التي بناها السلطان المريني ؟ و هل اهتم أبو الحسن بتجديد و ترميم الجوامع التي أُسست قبل سيطرته على المغرب الأوسط ؟ و هل اكتفى بتشييد الجوامع و المساجد فقط أم له إنجازات أخرى ؟

هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عنها إنطلاقا ممّا تركه لنا الخطيب بن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن ضمن هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: " الجوامع و المساجد في تلمسان خلال عهد أبي الحسن المريني من خلال كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق (731-752 هـ/ 1331-1351م) " .

1- التعريف بابن مرزوق الخطيب : هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ، يكنى أبا عبد الله و يلقب من الألقاب المشرقية شمس الدين[1] ، و العجيسي نسبة

[1] أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق : د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج5، ص391 .

إلى عجيسة قبيلة من قبائل البربر ، وُلد ابن مرزوق سنة 711هـ/ 1311م بتلمسان و تقدم في بلاده[1] ، و ينحدر ابن مرزوق من عائلة كبيرة أصلها من القيروان ، ثمّ هاجرت و استقرت في تلمسان أواخر القرن الخامس الهجري/ 11م أيام لمتونة المرابطية[2] ، و عن سبب هجرة جدهم الأول مرزوق فقد قال محمد بن مرزوق في المناقب المرزوقية و الذي يعد ترجمة ذاتية له و لأجداده ، إنّ مرزوقا جدّهم الأول خرج رفقة شقيقين له لمزعج أزعجهم و استوطنوا تلمسان ، و كان مرزوق هذا مشتغلا بالبادية بفلاحته و حراثته[3] ، و لم يذكر ابن مرزوق سببا واضحا لهجرة جدّه الأكبر من بلده القيروان .

و كغيره من أهل العلم فإنّ محمد بن مرزوق قرأ القرآن على الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن يعقوب بن علي ، كما قرأ على يد والده أبي العباس أحمد بن مرزوق ، و كانت أولى رحلاته مع والده سنة 724هـ/1323م في شهر ربيع الأول ، و دخل بجاية و لقي بها عدة مشايخ ، منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزواوي من الفقهاء ، ثم اتجه إلى قسنطينة و منها إلى تونس ، و لقي بها من الصلحاء جماعة منهم أبا عبد الله الزبيدي و أبا الحسن الخطاب من الفقهاء[4] ، ثم اتجه إلى الإسكندرية و لقي بها جماعة من العلماء منهم تاج الدين الفاكهاني ، ثم زار القاهرة و لقي بها المحدِّث قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ، و بعدها أقام ابن مرزوق مع أبيه في الحجاز إلى سنة 728هـ/1327م ، و كان يحج كل سنة ، و عاد إلى المغرب سنة 729هـ/1328م و أقام بتلمسان إلى سنة 734هـ/1333م ثمّ عاد إلى الحجاز ، و لم يلبث أن عاد إلى تلمسان مقيما بها سنة 737هـ/1337م[5] .

و في هذه السنة تمكن أبو الحسن السلطان المريني من فتح تلمسان ، و كان عمه محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق مقربا من أبي الحسن ، فاستمال السلطانُ ابنَ مرزوق و أدخله في حاشيته .و عندما توفي عمه عُين خطيبا لجامع العباد في تلمسان[6] .

و شهد ابن مرزوق مع السلطان أبي الحسن موقعة طريف سنة 741هـ/ 1340م و التي انهزم فيها المسلمون هزيمة منكرة[7] ، و بعد هذه المعركة أرسل أبو الحسن ابنَ مرزوق في سفارة إلى قشتالة لإبرام الصلح و فداء ابنه المسمى بأبي عمر تاشفين و الذي أُسر في المعركة[8] .

---

[1] ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق : محمد الأناؤوط، دار ابن كثير، بيروت-دمشق، الطبعة الأولى، 1992م، ج8، ص476)

[2] يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، بيير فونطانا، الجزائر، 1903م، ص48 .

[3] أبو عبد الله محمد بن مرزوق، **المناقب المرزوقية**، تحقيق : سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008م، ص147 .

[4] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 302 .

[5] نفسه، ص 304 .

[6] محمد بن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: د/ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981م، ص23 .

[7] حول المعركة ينظر : عبد الرحمان بن خلدون، **ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر، بيروت، 2000م، ج7، ص346 .

[8] ابن مرزوق،المسند الصحيح الحسن، ص24 .

و رافق ابن مرزوق الحملة المرينية ضد تونس في جمادى الآخرة 748هـ/سبتمبر1347م و التي جرت فيها وقائع كثيرة ، و لم يلبث أن انتفض أهل تونس لا سيما الأعراب على أبي الحسن الأمر الذي استغله ولده أبو عنان فاستولى على الحكم في فاس و عزل أباه سنة 749هـ/1348م[1] ، و في تلمسان أستطاع الزيانيون العودة إلى الحكم في جمادى الآخرة سنة 749هـ/ سبتمبر1347م و أُقتحمت دار ابن مرزوق في هذه المدينة فانتقل إلى المغرب[2] ، و لم يمكث في فاس و عاد إلى تلمسان و اجتمع بالسلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمان في الوقت الذي كان فيه أبو الحسن في الجزائر يستعد لمهاجمة تلمسان ، و لهذا كلّف السلطان الزياني ابن مرزوق سرّا بأن يخرج إلى جانبه سرا إلى أبي الحسن للصلح معه ، و لكنَّ أبا ثابت أخ السلطان الزياني لم يوافق على هذا الصلح ، فاعترضوا طريق ابن مرزوق و اقتادوه أسيرا ، ثم تمّ نفيه إلى الأندلس سنة 752هـ/1357م ، و في غرناطة التقى السلطان النصري أبا الحجاج يوسف و وزيره ابن الخطيب ، كما وطّد صداقة مع أحد أبناء أبي الحسن و اسمه أبو سالم[3] .

و في سنة 754هـ/1353م ناداه السلطان أبو عنان إلى فاس ، ثم أرسله السلطان المريني سفيرا إلى تونس ليخطب إحدى بنات السلطان أبي يحي الحفصي سنة 758هـ/1356م ، و لكن ابن مرزوق لم يوفق فاتُهم في فاس بالتضامن مع الرفض الحفصي ، و سُجن مرة ثانية و لم يخرج من السجن إلا قبيل مصرع أبي عنان في 28 ذي الحجة 759هـ/5 ديسمبر 1358م[4] .

و خلال الفتنة التي تلت مقتل أبي عنان حاول ابن مرزوق مساعدة أبي سالم بن أبي الحسن للإستيلاء على السلطة ، و استطاع أبو سالم استلام السلطة يوم 15 شعبان 760هـ/ 12 يوليو 1359م و عاد ابن مرزوق إلى قمة السلطة ، و لكن سرعان ما اغتيل السلطان المريني الجديد في ذي الحجة 762هـ/ ديسمبر 1361م و سُجن ابن مرزوق ، و بعد عامين خرج من سجنه و رحل إلى تونس حيث استقبله السلطان الحفصي أبو إسحاق إبراهيم (751-770هـ/1350-1368م) و وزيره ابن تفراجين ، و عُين خطيبا لمسجد الشماعين[5] .

و بعد موت السلطان الحفصي أبي إسحاق الذي كان يرعى ابن مرزوق و يرفع شأنه ، قرر الرحلة إلى الإسكندرية و منها إلى القاهرة حيث استقبله الملك الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين و الذي أكرمه و عينه قاضيا و خطيبا و مدرسا في مساجد صلاح الدين ، و في شهر ربيع الأول 781هـ/ 1379م توفي ابن مرزوق في القاهرة[6] .

و ترك الخطيب بن مرزوق مؤلفات كثيرة منها كتاب شرح الأحكام في الحديث و كتاب شرح الشفاء لم يكمله و شرح الأحكام الصغرى ، و إيضاح المراشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم و الفوائد ، و

---

[1] ابن خلدون، مصدر سابق، ج7، ص369 .

[2] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 25 .

[3] نفسه، ص26 .

[4] نفسه، ص27 .

[5] نفسه، ص28 .

[6] نفسه، ص30 .

الإمامة و الفوائد المرزوقية في شرح الخزرجية ، و عقيدة أهل التوحيد ، و المخرجة من ظلمات التقليد ، و المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن[1] .

2- التعريف بكتاب المسند الصحيح الحسن في مآثرو محاسن مولانا أبي الحسن :

2-1- سبب تأليف الكتاب : من خلال عنوان الكتاب قد ينصرف إلى الذهن أنّه كتاب مناقب و كرامات و لكنّه جاء بأخبار تاريخية كثيرة و متنوعة عن الدولة المرينية من عدّة جوانب سياسية و إدارية و روحية و ثقافية و عمرانية ، و كان أكثر ما نقل ابن مرزوق ثمرات مشاهداته الخاصة ، و هذا ما أكسب الكتاب قيمة توثيقية كبرى عند الباحثين ، إذ يعتبر تأليف ابن مرزوق هذا أثرا فريدا من نوعه تطرّق فيه إلى جزء مهم من حياة دولة إسلامية من الداخل[2] .

و ألف ابن مرزوق هذا الكتاب في تونس و أتمّه سنة 772هـ/1371م ، و يبدو واضحا من مقدمة المسند أنّ المؤلف كان يقصد بكتابة هذا التأليف نيل رضا حفيد أبي الحسن المتربع على العرش في فاس ، لعلّه يسترجع مكانته في الدولة و الذي لم يتردد في التودد و القول أن السلطان أبا فارس عبد العزيز جرى على سنن جدّه أبي الحسن ، و أن الإسلام عزّ به و أجرى على يديه العدل و الفضل[3] .

2-2- تقسيم الكتاب : بعد المقدمة و فصل خصصه ابن مرزوق للحديث عن الخلافة و مفهومها ، شرع المؤلف في تقديم الأبواب الخمسة و الخمسين التي يتضمنها الكتاب و التي قسمها بدورها إلى فصول ، و قد تناول في كل جانب منها شيئا من حياة أبي الحسن الغنية بالأحداث ، فبعد الكلام عن كمال صورته و تربيته و حسن خلقه ، خصص بابا لكل ظاهرة من ظواهر خلقه و معاملته للناس كحلمه و صبره و برّه بوالديه و عدله و تودده للناس كافة على اختلاف مراتبهم و علاقته بأهل العلم .

و تكلم ابن مرزوق عن تطبيق السلطان للشورى و عن جلسائه و وزرائه و كتابه ، و حكى عن حروبه ، و لم يهمل حياته الخاصة فقد نقل ابن مرزوق وصفا لحياة السلطان اليومية من يقظته إلى نومه ، و تحدّث عن منشآته العمرانية في مختلف أقطار بلاد المغرب الإسلامي من جوامع و مساجد و مدارس و قناطر و محارس و تمهيد للطرق ، و في آخر الكتاب حديث عن خصال أبي الحسن و مزاياه المحمودة ، من علو همته و سيرته في أسفاره و ما اختص به من نسخ كتاب الله تعالى ، و انتهى الكتاب بخاتمة خصصها المؤلف للحديث عن ظروف اتصاله بالسلطان و عن كيفية معاملة أبي الحسن المريني له و عن طبيعة علاقتهما[4] .

---

[1] خير الدين الزركلي، **الأعـــلام**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، 2002م، ج5، ص328 .

[2] محمد بوعباد، **المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن**، مجلة عالم الكتب، المجلد الثالث، عدد 2، شوال1402هـ/يوليو1982م،دار ثقيف للنشر و التوزيع، الرياض، ص213 .

[3] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص92 .

[4] محمد بوعباد، مرجع سابق، ص213 .

و كتاب المسند الصحيح الحسن جاء بأسلوب مرسل بسيط لا سجع فيه و لا زخرفة ، و قد برهن في فصول الكتاب كلها على إطلاعه الواسع في جميع مجالات العلم و الأدب المعروفة في عصره ، كما أبان عن قدرته على الإستدلال بالنصوص و الحجج الموضوعية ، فكان بذلك أحسن ممثل للثقافة الإسلامية ببلاد المغرب في القرن الثامن الهجري[1] .

2-3- القيمة التوثيقية للكتاب : يورد ابن مرزوق أحداثا و معلومات ذات قيمة توثيقية لا نجد مثلها في المؤلفات القديمة إلا نادرا ، إذ يذكر حسب الموضوع نوع الأنظمة السياسية و الإدارية و أسماء المسؤولين و الأماكن و حكام الأقاليم ، كما لا يغفل عن ذكر العلاقات الإجتماعية السائدة و العادات المنتشرة ، و يصف المنشآت العمرانية المدنية و الدينية وصفا دقيقا ، و من الأمثلة على ذلك ما قام به السلطان المريني من إنشاء المحارس في جميع السواحل ، و هذا بعض ما جاء في المسند في هذا السياق إذ يقول : " و أنشأ هذا المولى من المحارس و المناظر ما لم يعهد مثله في عصر من العصور ، و حسبك أنّ مدينة آسفي و هي آخر المعمورة إلى بلد الجزائر بني مزغناي آخر وسط المغرب و أول بلاد إفريقية محارس و مناظر إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة و ذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين ، و في كل محرس رجال مرتبون نظار و طلاع يكتشفون البحر ، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا و التنيير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم ، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة "[2] .

و ممّا يزيد هذه المعلومات قيمة أنّها تخص سلطانا لدولة قوية تمكن من توحيد بلاد المغرب الإسلامي و لو لفترة قصيرة ، و ليست الأحداث التي دونها المؤلف مفيدة لمؤرخ الدولة المرينية فحسب بل تفيد مؤرخ الدولة الزيانية في المغرب الأوسط و تفيد أيضا مؤرخ الدولة الحفصية في إفريقية ، فبإمكان جميع هؤلاء أن يغترفوا من هذا السجل الحافل بالأحداث التي عاشها المغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري ، فملأ هذا المؤلف الفراغ الموجود في الكتب التاريخية الكبرى التي لم تهتم إلا نادرا بمثل هذه المشاهدات و الأخبار[3] .

2-4- تحقيق الكتاب و نشره : ذكر عدد من المؤرخين المتأخرين كتاب المسند و منهم أحمد المقري في نفح الطيب ، إلا أنّ الكتاب لم يحض برواج كبير و الدليل على ذلك النسخ القليلة جدا للمخطوط ، فلم يعرف في عصرنا إلا نسختان ، إحداهما في الخزانة العامة للرباط و الثانية في دير الإسكوريال بإسبانيا ، و أول من نبه للمسند و نشر أقساما منه و ترجمها إلى الفرنسية المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال و ذلك سنة 1925م في مجلة هسبريس الصادرة في الرباط[4] .

---

[1] نفسه، ص213 .

[2] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص398 .

[3] محمد بوعباد، مرجع سابق، ص314 .

[4] نفسه، ص 315 .

و في سنة 1973م قدّمت الإسبانية ماريا خيسوس بيغيرا رسالة دكتوراة إلى جامعة مدريد موضوعها المسند لابن مرزوق ، و قدّمت ترجمته إلى اللغة الإسبانية و سبقتها بدراسة عن حياة المؤلف و آثاره ، و قد نشر نص الرسالة المعهد الإسباني العربي بمدريد ، ثمّ عرضت ماريا خيسوس بيغيرا على المكتبة الوطنية الجزائرية نشر نص المسند المحقق ضمن منشورات المكتبة و تمّ الإتفاق على هذا بين الطرفين[1] ، و بذلك أخرج الكتاب بنصه المطبوع و صار مصدرا تاريخيا أساسيا لا يستغني عنه باحث في سيرة أبي الحسن أحد أعظم سلاطين الدولة المرينية .

3- المنشآت العمرانية الدينية في تلمسان خلال عهد السطان أبي الحسن المريني :

3-1- التعريف بالسلطان أبي الحسن المريني (697-752هـ/1297-1351م) : السلطان أبو الحسن أفخم ملوك دولة بني مرين و أضخمهم ملكا و أبعدهم صيتا و أعظمهم أبهة و أكثرهم آثارا بالمغرب والأندلس ، و يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لأنّ أمه كانت حبشية فكان أسمر اللون[2] ، و اسمه علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، و يكنى بأبي الحسن ، و لقبه المنصور بالله ، ولد بتيفرديون بأقصى المغرب في صفر سنة 697هـ/752م ، و بويع له بفاس يوم الجمعة 25 ذي القعدة سنة 731هـ/29 أوت 1331م ، و كانت دولته عشرين سنة و ثلاثة أشهر و يومين[3] .

استنجد به بنو الأحمر حكام غرناطة بعد أن احتل الفرنج جبل طارق ، فأرسل الجيوش بقيادة ابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين ، فاحتل بالجزيرة و تتابع إليه الأسطول بالمدد ، و تمكن من التغلب على الجبل سنة 733هـ/ 1332م و حصّنه و سدّ فروجه و أنزل الحامية به و نقل الأقوات إليه[4] .

و كان بنو زيان على غير وفاق مع بني مرين فصالحهم فنكثوا ، فزحف إليهم سنة 735هـ/ 1334م فمرّ بوجدة و حاصرها ، ثمّ مرّ بندرومة و استولى عليها آخر سنة 735هـ/أوت 1335م ، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على وجدة سنة 736هـ/1335م فأوعز إليهم بتخريب أسوارها ، ثمّ سرّح عساكره إلى الجهات فتغلّب على وهران و هنين ثمّ مليانة و تنس و الجزائر كذلك سنة 736هـ/1336م[5] .

و جدّد بناء المنصورة قرب تلمسان ، ثم تمّ له فتح تلمسان و أطاعته زناتة ، و سبب هذا الفتح أنّ السلطان أبا الحسن خرج لأخذ ثأر صهره السلطان الحفصي أبي يحي أبي بكر من صاحبها ابن تاشفين ففتحها عنوة و دخلها لسبع و عشرين من رمضان 737هـ/28 أفريل 1337م ، و وقف صاحبها في ساحة

---

[1] نفسه، نفس الصفحة .

[2] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق : جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج3، ص118 .

[3] أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1973م، ص461 .

[4] ابن خلدون، مصدر سابق، ج7، ص338 .

[5] ابن خلدون، مصدر سابق، ج7، ص339 .

قصره فقاتل هناك مع خاصته حتى قتل ابناه عثمان و مسعود و وزيره موسى بن علي و جملة من كبار أصحابه و أثخنته الجراح و وهن لها ، فقُبض عليه و رُفع إلى السلطان فأمر به فقُتل و احتز رأسه[1] .

و عاد السلطان إلى فاس فجهز الجيوش لقتال الفرنجة في الأندلس بقيادة ابنه أبي مالك فقتله الإفرنج ، فتولى السلطان مباشرة الجهاد بنفسه ، فعبر المضيق سنة 740هـ/1339م و وصل ناحية طريف ، فحاصرها طويلا و لكن النصارى تمكنوا من جيشه و أوقعوا بالمسلمين هزيمة كبيرة و قُتلت النساء و الولدان و الرجال ، و كان الخطب على الإسلام عظيما قلما فجع بمثله ، و ذلك يوم السابع من جمادى الآخرة سنة 741هـ/27 نوفمبر1340م ، و ولى السلطان متحيزا إلى فئة من المسلمين و خلص إلى الجزيرة الخضراء و منها إلى جبل الفتح ، ثمّ ركب الأسطول إلى سبتة في ليلة غده[2] .

و بعد وقعة طريف لم يستطع المرينيون في عهد السلطان أبي الحسن أن يعيدوا الكرّة على نصارى الأندلس ، و لما توفي السلطان الحفصي أبو بكر نشبت الفتنة بين ولديه فعزم أبو الحسن على التوجه إلى تونس فدخلها سنة 748هـ/1347م ، و زار القيروان و سوسة و المهدية و رباط المنستير بأدنى بلاد المغرب ، و استعمل العمال على مختلف الجهات ، و قال ابن خلدون بعد إيراده تفاصيل هذه الغزوات ما نصه : " و اتصلت ممالكه ما بين سبراتة و السوس الأقصى من هذه العدوة إلى رندة من عدوة الأندلس ، و الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده "[3] .

و لم يكد ينعم بهذا الإستقرار حتى انتفضت عليه قبائل العرب في إفريقية فقاتلهم فظفروا به ، فلجأ إلى القيروان و منها تسلل إلى تونس فهادنه العرب ثمّ صالحوه ، و وصلت الأخبار إلى المغرب الأقصى فانتفضت زناتة و غيرها ، و كان السلطان قد ولى على تلمسان و سائر المغرب الأوسط ابنه أبا فارس عنان ، فلما علم هذا بما حلّ بأبيه دعا إلى نفسه فبويع بقصر السلطان سنة 749هـ/1348م ، و زحف بجيش إلى فاس فقاومه أميرها و هو أخوه المنصور فافتتحها و قتله و خضع له المغرب ، و جاءت الأخبار إلى السلطان أبي الحسن و هو بتونس فركب البحر سنة 750هـ/1349م و عصفت الريح على ساحل تدلس بالمغرب الأوسط فغرق أغلب من معه إلا بضعة مراكب و نزل بجزائر بني مزغناي فأقبل عليه أهلها ، فنهض يريد تلمسان و كان قد استعادها بنو زيان فقاتلوه و نهبوا ما بقي معه ، فخلص إلى الصحراء و انتهى إلى سجماسة فقابله أهلها بالطاعة ، و منها إلى مدينة مراكش ففرح به أهلها و زحف إليه ابنه أبو فارس عنان من فاس لقتاله فتلاقيا في وادي أم الربيع ، فانهزم عسكر السلطان و نجا ، فانصرف إلى جبل هنتاتة فاعتل في أثناء ذلك و مات ، فحُمل إلى ابنه و دفنه في مراكش ثم نقله إلى مقابرهم في فاس[4] ، و

---

[1] أبو عبد محمد بن إبراهيم الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**، تحقيق و تعليق : محمد ماضود، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية، 1966م، ص72 .

[2] الناصري، مرجع سابق، ج3، ص137 .

[3] ابن خلدون، مصدر سابق، ج7، ص358 .

[4] الزركلي، مرجع سابق، ج4، ص311 .

يذكر الناصري في الاستقصا أنّ الذي رآه مكتوبا على رخامة قبره أنّ وفاة السلطان كانت ليلة الثلاثاء 27 ربيع الأول 752هـ/23 ماي 1351م[1] .

2-3 : الجوامع و المساجد في تلمسان و ما جاورها خلال عهد السلطان أبي الحسن : لقد اهتم المرينيون بالبناء و العمران ، و شيدوا الكثير من المنشآت العمرانية المدنية و الدينية ليس في المغرب الأقصى مقر دولتهم فحسب ، و إنما في كثير من حواضر المغرب الأوسط التي وقعت تحت سيطرتهم لا سيما في عهد السلطان أبي الحسن الذي استطاع أن يبسط سلطانه على كامل بلاد المغرب لفترة زمنية ليست بالطويلة ، و لا تزال هذه المآثر العمرانية لحد الساعة تخلد ذكرى سيطرة هذا السلطان على هذه المناطق و المدن ، و لعل من أهمها مدينة تلمسان التي تعتبر حاضرة المغرب الأوسط ، و قد نقل لنا ابن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن في مفاخر و مآثر مولانا أبي الحسن وصفا لبعض الجوامع و المساجد التي بنيت في عهد هذا السلطان ، و كان ابن مرزوق شاهدا و مشاركا و مشرفا على بنائها .

و لعل أعظم و أهمّ جوامع مدينة تلمسان التي بناها السلطان أبو الحسن جامع العباد ، و الذي بُني حذاء ضريح الشيخ أبي مدين شعيب ، و يقع حي العباد الأثري الذي نُسب إليه الجامع في الشمال الشرقي لمدينة تلمسان على سفح جبل شديد الإنحدار ، و نواة الجامع عبارة عن رباط كان يتعبد به المتزهدون و المتصوفون و يرابط فيه المجاهدون كذلك المدافعون عن المدينة من الغارات و الهجمات الخارجية التي كانت تشنها القبائل المعادية أو الدول المجاورة ، و في نهاية القرن السادس الهجري /12م قصد إليه الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين من بجاية في طريقه إلى فاس و توفي بعين تاقبالت قرب تلمسان قبل أن يصل إلى هذا الرباط ، فنُقل إلى العباد و دُفن هناك سنة 596هـ/1197م ، فاشتهر الحي به و أصبح يُعرف بعباد سيدي بومدين و بُني عليه ضريح ، و دُفن معه الشيخ عبد السلام التونسي شيخ عبد المؤمن الموحدي مؤسس الدولة الموحدية[2] .

و قد وصف ابن مرزوق جامع العباد بما يلي : " فهو الذي عزّ مثاله و اتصف بالحسن و الوثاقة أشكاله ، أنفق فيه السلطان مقدارا جسيما و مالا عظيما ، و كان بناؤه على يدي عمي و صنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق و على يدي"[3] .

و قد بُني المسجد بأمر من السلطان أبي الحسن سنة 739هـ/1339م ، و من خلال ما سبق فقد كان ابن مرزوق هو المكلف بالبناء رفقة عمه الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، و لنترك ابن مرزوق يواصل وصف الجامع فيقول : " اشتمل الجامع على الوضع الغريب ، و هو أنّ سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم و صناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع ، قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة ، فلا يختلج في النفس شك و لا وهم أنها أشكال منجورة

---

[1] الناصري، مرجع سابق، ج3، ص174 .

[2] يحي بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، منشورات المؤسسة الوطنية للإتصال و النشر و الإشهار، الجزائر، 2011م، ص123 .

[3] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص403 .

منقوشة ، و هي كلها مبنية بالآجر و الفضة ، و اشتمل على المبنى العجيب الشكل المؤلف من الصندل و العاج و الأبنوس المذهب ذلك كله ، و أمّا الباب الجوفي الذي ينفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ و إلى الشارع و هو باب النحاس و المشتمل على مصراعين ، كل مصراع منهما مصفح بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل ، و تخريمه على أشكال من نحاس ملونة ، فهو من غريب ما يتحدث به السفار ، أخذ على صناعة المصراعين الصفارون نحوا من سبعمائة دينار ذهبا عينا ، و على مدرجه قبة من عمل المقربص غريبة الشكل قليلة المثل ، و صومعته كذلك في غاية الحسن و الإتقان ، كل جهة من جهاتها الأربع تخالف الأخرى في النوع "[1] .

و لا يزال مسجد العباد من أهم مساجد تلمسان إلى يومنا هذا ، و قد زاره الدكتور الفاضل يحي بوعزيز رحمه الله تعالى و نقل لنا في كتابه المساجد العتيقة في الغرب الجزائري وصفا دقيقا له في وقتنا الحالي ، فالجامع حسب الدكتور يتألف من قاعة للصلاة مستطيلة الشكل تحتوي على عشرين سارية مربعة الشكل و عالية ، و في مؤخرة القاعة غربا ساحة بوسطها نافورة مياه و صهريج للوضوء ، و حولها على اليمين و اليسار رواقان امتدادا لقاعة الصلاة ، و في نهاية الرواقين غربا على اليسار و اليمين قاعتان صغيرتان مرتفعتان عن ساحة المسجد للنساء يصعد إليهما بواسطة مراقي ، و للمسجد باب رئيسي كبير في مؤخرته الغربية صُنع من شجر الزان الصلب و مزين بمسامير نحاسية كبيرة و جميلة ، و له قفل تقليدي ضخم من الداخل و غلف بصحيفة من البرونز جميلة و مزخرفة ، و يصعد إليه على اثني عشر مرفاة أو درجة من الرخام الخالص[2] .

و في مؤخرة المسجد على اليمين توجد منارة و مئذنة الجامع المربعة الشكل و المزخرفة بنقوش جميلة جدا تضفي على المسجد و الحي بكامله روعة و بهاء ، و قد زينت كثير من جدران المسجد و المحراب بنقوش و آيات قرآنية كريمة ، و للمسجد مدخلان جانبيان آخران على اليمين و اليسار ، و مدخل رابع خاص بمكان الصلاة على الموتى على اليسار الشمالي الشرقي وراء المحراب ، و عندما اندثر منبره الأصلي قام الأمير عبد القادر بتجديده خلال حكمه تلمسان ما بين سنتي 1834 و 1839م ، و في مؤخرة المسجد على اليسار بيت لتعليم الأطفال القرآن الكريم تعتبر جزءا من القاعة[3] .

و ممّا زاد الجامع مكانة تلك المدرسة التي شيّدها السلطان المريني أبو الحسن حذاءه ، و قد ذكرها ابن مرزوق في المسند و لم يسّمها باسم معين ، و اكتفى بالقول أن أبا الحسن وضعها و أنّها تقع بالعباد في ظاهر تلمسان[4] ، و حسب مؤرخنا الدكتور يحي بوعزيز فالمدرسة هذه تعرف بالمدرسة اليعقوبية و تقع على يمين جامع العباد ، و قد تم بناؤها سنة 747هـ/1347م ، و تتألف من قاعة للصلاة و التدريس جميلة ذات قبة خشبية نادرة الوجود حتى في المغرب الأقصى بزخارفها ، و نقوشها مزينة بالآيات القرآنية هي و

---

[1] نفسه، ص ص403-404 .

[2] يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص123 .

[3] يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص124 .

[4] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص406 .

الجدران كلها و المحراب ، و من ساحة خلفية غرب القاعة تتوسطها فوارة مياه و صهريج صغير ، و تحيط به على اليمين و اليسار و الوراء بيوت لسكنى الطلبة في الطابق الأرضي و في الطابق العلوي ، و قد لعبت هذا المدرسة و الجامع دورا رائدا في النهضة الفكرية الدينية و الأدبية و التربوية[1] .

و يذكر ابن مرزوق جوامع أخرى يُعتقد أن أبا الحسن المريني قد جدّد آثارها و أعاد رسمها ، و يُستدّل على هذا بقول ابن مرزوق : " و أمّا ما أنشأه بمدينة تلمسان ، فممّا يرجى من الله إعادة رسمه و تجديد آثاره ، فكان ممّا لم يعهد منه في سالف الأزمان و لا سبق شكله في قواعد البلدان "[2] .

و في هذا السياق ذكر ابن مرزوق الجامع الكبير بتلمسان ، و المعروف تاريخيا أنّ هذا الجامع قد بناه المرابطون سنة 530هـ/1136م بأمر من الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين[3] ، و لا يُستبعد أن يكون السلطان المريني قد أمر بإجراء ترميمات و تعديلات على هذا المسجد الذي يتوسط المدينة ، و من الأشياء التي أضيفت للجامع في هذا العهد تلك الثريا التي عملها ابن مرزوق بيده و رسم تاريخها بخطه ، و تشتمل على ألف مشكاة أو نحوها[4] .

و ذكر ابن مرزوق أيضا جامعا آخر و هو جامع القصبة ، و وصفه بأنّه اشتمل على المحاسن التي لم يجتمع مثلها في مثله من حسن وضعه و جمال شكله و ترتيب رواقاته و اعتدال صحنه و حسن ستاره و معين مائه و اتساع رحابه و احتفال ثرياته الفضية منها و الصفرية و غرابة منبره[5] .

و هناك مساجد أخرى ذكرها ابن مرزوق و نسبها إلى عصر السلطان المريني ، مكتفيا بذكر مواقعها فقط و معرضا عن تقديم أي وصف لها ، و هي التي تقع عند باب الحجاز و عند باب هنين و عند باب فاس ، و منها أيضا الجامع الذي أنشأه أبو الحسن بمدينة هنين ، و كان شراء موضعه على يد ابن مرزوق نفسه ، و هو مسجد خطبة و فيه صومعة كبيرة مختلفة[6] .

و أخيرا و بعد هذا العرض الموجز لأهم المنشآت العمرانية الدينية التي شُيدت في المغرب الأوسط خلال عهد السلطان أبي الحسن المريني الذي بسط سيطرته على هذه المنطقة و التي كان المؤرخ ابن مرزوق ناقلا و شاهدا و مشرفا على تشييد كثير منها يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :

- تعتبر شخصية المؤرخ الخطيب بن مرزوق من أهم أفراد البيت المرزوق الذي كان من أهم البوتات العلمية في المغرب الأوسط عامة و في تلمسان خاصة ، و لم يكن شخصية علمية فحسب بل شارك في الحياة السياسية مشاركة فعالة لا سيما في أيام السطان المريني أبي الحسن .

- يعتبر كتاب المسند الصحيح الحسن في محاسن و مآثر مولانا أبي الحسن من أهم كتب السير السلطانية في تاريخ المغرب الإسلامي ، و ذلك لما جاء فيه من أخبار سياسية و إدارية و ثقافية و عمرانية ، و هذا

---

[1] يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص125 .

[2] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص402 .

[3] يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص111 .

[4] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص402 .

[5] نفسه، نفس الصفحة .

[6] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص403 .

التأليف فريد من نوعه إذ هو ثمرات مشاهدات و ممارسات و تجارب المؤلف ، و فيه جزء مهم من تاريخ أقوى سلاطين الدولة المرينية .

- إنّ كتاب المسند الصحيح ليس كتابا خاصا بحياة أبي الحسن المريني و أخبار دولته فحسب ، بل هو تاريخ جامع لبلاد المغرب كلها ، فبإمكان مؤرخي الدولتين الزيانية و الحفصية أيضا الإغتراف من هذا السجل الحافل بالأحداث التي عرفها المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري/ 14م .

- يعتبر السلطان أبو الحسن المريني من السلاطين القلائل الذين تمكنوا من توحيد بلاد المغرب تحت رايته ، و إن كان هذا التوحيد لم يمتد لفترة زمنية طويلة .

- لم يكن إهتمام السلطان أبي الحسن مقتصرا على الجوانب السياسية بل تعداه إلى الجوانب الحضارية الأخرى لا سيما العمرانية ، و شمل هذا الإهتمام مختلف المناطق التي وقعت تحت سيطرته في بلاد المغرب الإسلامي .

- استطاع السلطان أبو الحسن أن يخلّد سيطرته على كثير من مدن المغرب الأوسط بما بناه من جوامع و مساجد لاسيما مدينة تلمسان .

- يعتبر مسجد العباد بتلمسان من أهم المنشآت العمرانية الدينية التي لا تزال شاهدة على مرحلة حكم المرينيين المغرب الأوسط بقيادة السلطان أبي الحسن ، و لا يزال المسجد قائما إلى يومنا الحالي .

- لم يكن جامع العباد الجامع الوحيد الذي شُيد في العهد المريني في المغرب الأوسط بل شُيدت مساجد أخرى في تلمسان و غيرها من المدن ، كما جُددت جوامع أخرى كالجامع الكبير بتلمسان .

- لم يكتف أبو الحسن المريني بتشييد الجوامع و المساجد فقط بل أسس المدارس أيضا ، و لعل أهمها و أشهرها و التي لا تزال قائمة إلى اليوم مدرسة العباد بجانب الجامع المعروف بهذا الاسم في مدينة تلمسان .